

الأسطورة والأدب

الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي
كُلِّيَّةُ الآداب. تطوان

1. الإنسان كائناً أسطورياً:

إذا كان لنا أن نعرّف الإنسان تعريفاً يُضاهي تعريف الفلاسفة القدامى إذ كانوا يقولون: "الإنسان حيوانٌ ناطقٌ"، فلنا أن نقول: الإنسان حيوانٌ أسطوريٌّ، أي إنّه حيوانٌ عاقلٌ، يختلطُ في ذهنه وفكره وممارسته الواقِعَ والخيالَ، والحقُّ والباطلُ، والطبيعةُ وما وراءَ الطبيعة، والممكنُ والمستحيلُ، والمفكّرُ فيه واللامفكّرُ فيه، يبحثُ عن قيمٍ مُطلقةٍ، كالخيرِ والسعادة، ويُفسّرُ ظواهرَ الطبيعة وظواهرَ الإنسان، أي ظواهرَ العادة، تفسيراتٍ سرديّةٍ حكائيّةٍ يحكمها "خرقُ العادة" و"القداسة"، وينسبها إلى "زمنٍ أوّلٍ" مقدّسٍ بدنيٍّ، وإلى أشخاصٍ وكنائسٍ أقوى من البشرِ وأعلمَ وأحكم، ويتنبأُ بحوادثٍ خارقةٍ كذلك تقعُ في "آخر الزمان"، تكونُ عندَ نهايةِ الزمان، وما بعدَ نهايةِ الزمان.

وإذا كان العقلُ أعدلَ قسمةٍ بينَ الناسِ، أي إذا كان قابليّةً إنسانيّةً مشتركةً للتفكير، فإنّ من هذه القسمةِ هذا "العقلُ الأسطوريُّ البشريُّ"، الذي هو طريقةٌ كونيّةٌ في التفكير والتخيّل، هي أقدمُ طرقِ الإنسان في التفكير والتخيّل، لا محالة، عمُرُها عمُرُ الوجودِ البشريِّ على الأرض، كانت قبلَ أن يُنشئَ الإنسانُ طرائقَ عقليّةً جديدةً مستحدثةً في الحضاراتِ الأخيرة، جعلتهُ يستنبطُ الفلسفةَ الماديّةَ ومن ورائها العقلَ السببيّ.

لاكنّ استحداثُ هذا العقلِ السببيِّ الفيزيائيِّ في الألفياتِ الأخيرة، ولا سيما في بلادِ الإغريقِ القديمة، لم ينسخْ هذه الأسطورةَ نسخاً. بل عايشها وعاشتته، وداخلها وداخلته، بل سعى الفلاسفةُ إلى استثمارِ هذه الأساطيرِ القديمة، وإفراجها من محتواها القديم، وتضمينها آراءً فلسفيّةً. وما قصّةُ الرّجلِ المُعلّقِ في الفضاء، وحيّ بن يقظان، ونظريّةُ الفيضِ عندَ الفارابيِّ، والإنسانُ الكاملُ عندَ الصوفيّة، إلا إعادةُ إنتاجٍ لأساطيرٍ قديمة، وتكييفٌ مستمرٌ لها لثوائمِ الإيديولوجياتِ البشريّةِ في المُستحدثة.

كانَ الإنسانُ حيواناً أسطورياً منذُ كان، يُفكّرُ بالأسطورة، ليفهمَ النسيبَ والمُطلقَ، والإنسانَ والعالمَ، كُلهُ وبعضه، والروحَ والجسدَ، ويُنظّمَ حياته على الأرض، ويضمنُ راحةَ روحه في الدارِ الآخرة، ويصلُ إلى الله في كلّ وقتٍ وحين. وسوف يبقى هذا الإنسانُ حيواناً أسطورياً يفكّرُ في كلّ هذه الأشياء، إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومن عليها، وهو خيرُ الوارثين. أنكرَ الفلاسفةُ الماديّونَ الأسطورةَ وأرادوا نسخها، فما انشِخت. وأرادتِ الدهريّةُ العزبيّةُ في آخرِ العصرِ الجاهليِّ نسخَ الأسطورةِ والقرآنِ معاً، فلا نسختْ أسطورةً ولا قرآناً، وما كانَ يتبغى لها. بل تابعَ القرآنُ طريقه غيرَ مُلتفتٍ إليها إلا قليلاً، وتابعتْ الأسطورةُ طريقها غيرَ مُلتفتةٍ إليها قليلاً ولا كثيراً، فعزّتِ اللُغةُ والأدبُ والفنُّ والموسيقى والمِللُ والنحلُ والعقائدُ وغيرُ

ذالك، وتلونت في ألوان، وتشكّلت في أشكال، وبنت دُولاً وَهَدَمَت أُخرى، وشكّلت هُوِيَةَ الإنسان، وفكر الإنسان، وعلوم الإنسان، ومخيال هذا الإنسان، وطالما منعتهُ من أن يفكر في غير ما رسمته له من حدود، وأقامت له من ضوابط، وتسمت بأسماء كثيرة؛ احتجبت بها عن اسمها الأصلي، حتى تُرضي كل الناس.

2. الأسطورة أم الآداب البشرية:

كانت الأسطورة أقدم الآداب البشرية، لما كنا لا نعرف بدءاً فكرياً ولا أدبياً قبلها. فمُنذُ كان الإنسان، كانت معه الأسطورة في مُصَبِّحِهِ وَمُمَسَاهِ، يعيش بها ولها، وكانت الأسطورة كلاماً "أوحته الآلهة" في الأزل بلغة البشر، ولا بُدَّ لهذا الكلام الإلهي الموحى به من أن يكون جميلاً جذاباً أخاذاً فانقأ في صنعته، إذ إتقان الصنعة يدلُّ على تفوق الصانع.

لقد كانت أدبيّة الأسطورة، بما هي سردٌ مُمتِعٌ ومُدْهِشٌ وَعَجِيبٌ غريبٌ خارق، يُجاوِزُ الزمانَ والمكان، والجسمَ والعالم، ويمنحُ الإنسان الأملَ والسعادة، ويضبطُ سلوكه بالترغيب والترهيب، ويستجيبُ استجابةً مُطلقةً لِرغبتِهِ في فهمِ نفسه وفهمِ الكون، سرّاً أسرار انبثاق الأسطورة في "أول الزمان"، وبقائها وخلودها إلى "آخر الزمان"، وسرّ حفظها من الضياع في مجتمعاتٍ بشريّةٍ لا تُمارسُ الكتابةَ إلا قليلاً.

لاكنْ نُقادُ الأدبِ أبوا قديماً وحديثاً أن يدرجوا الأسطورة في نظريّة الأدب، لأنها تفتت وتعالّت وسكنتِ المحلَّ الأرفع، فلما أرادت أن تنتزلَ لهم، تجلتَ لهم بأسماء كثيرة، فحاروا في أمرها. فهي قصصٌ وحكايات، وأخبارٌ وإسرائيليات تارة، وهي تاريخٌ وجغرافية، وهي عجائبٌ وغرائب، وهي فلسفةٌ ومناقبٌ للصوفيّة، وهي اعتقاداتٌ وثنيّة تارة أُخرى، ولأنّها إلهيّة مُقدّسة الأصلِ والفرع، و"الأدب" في غالبِ أحواله أمرٌ بشريّ، ونقدهُ الأدبُ يطالبون السّلامَةَ في دينهم ودنياهم، ويميلون إلى خدمةِ السّلطانِ من وراءِ حجاب، تكلموا في إعجازِ الفُرءانِ قليلاً، وتكلموا في الشعرِ وفصلوه على النثرِ كثيراً، وفصلوا في أمرِ هذا الشعرِ، وسكّنتوا عمّا وراءَ ذلك، إلا في المرّة بعدَ المرّة، على قلةٍ ونُدرة.

كانتِ الأسطورةُ أمّاً لكثيرٍ من أجناسِ الأدب، فبينها وبينهم لحمَةٌ لا تخفى، وشيجةٌ لا تبلى، ورحمٌ لا تُقطع. فانظر، إن كنتَ ناظراً، ما بينها وبين الخرافة، وما بينها وبين الحكاية العجيبة، وما بينها وبين قصص الخيال العلمي، بل انظر ما بينها وبين السيرة الذاتية، يَبِينُ لك أمرُ هذه القرابة، وأمرُ هذه الأمومة، وأمرُ هذه البُتوة، إذ إن هذه الأجناسَ الأدبيّةَ لم تنبثق انبثاقاً، ولم تظهرْ ظهوراً، إلا بعدما شاخَتِ الأساطير، وتناقصت قداستها، ونافسها العقلُ الفلسفيّ وغيرُ الفلسفيّ في ميدانها، وابتذلَ روايتها وسردها كُلُّ مَنْ هبَّ ودبَّ. عندئذٍ ظهرت واستقلتْ بِأمرِ نفسها. لَكنْ حنينها إلى أمّها بقي قائماً، فهي إليها ترنو، ومنها تستمدّ، ولبانها تعنّدي.

لَقَدْ اسْتَقَلَّتْ بِأَمْرِ نَفْسِهَا فِي أَهَمِّ مَا فِي الْأَسْطُورَةِ، وَهُوَ الْقَدَاسَةِ، فَتَرَكْتَهَا غَيْرَ أَبِيهَا بِهَا، وَعَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى النَّاسِ عَلَى أَنَّهَا أَجْنَسُ أَدْبِيَّةٍ إِنْسَانِيَّةٍ غَيْرُ مُقَدَّسَةٍ، تَبْتَغِي فِيهَا تَبْتَغِي النَّسْلِيَّةَ وَالْإِمْتَاعَ وَالْهَزَلَ حِينًا، وَالْحِكْمَةَ حِينًا آخَرَ. بَيِّدَ أَنَّهَا ضَارَعَتْ الْأَسْطُورَةَ فِي مَا فِيهَا مِنْ خَرَقٍ لِلْعَادَةِ، وَمَزَجَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَشَبَّهَ الْبَاطِلَ، وَالْوَاقِعَ وَشَبَّهَ الْوَاقِعَ، وَالْمُتَخَيَّلَ. وَتَمَسَّكَتِ الْأَسْطُورَةَ بِمَا فِيهَا مِنْ قَدَاسَةٍ، فَهِيَ تَأْبَى أَنْ تَتَخَلَّى عَنْهَا. وَإِنَّمَا تُصَرِّحُ بِقَدَاسَتِهَا تَارَةً، وَتُضْمِرُهَا تَارَةً أُخْرَى.

كَانَتْ الْأَسْطُورَةُ فِي أَصْلِهَا كَلَامًا أَوْحَتْهُ الْإِلَهَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْأَوْتَانِ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ إِلَى الْبَشَرِ، وَكَانَ هَذَا الْكَلَامُ بَلُغَةً طَبِيعِيَّةٍ فِيهَا حَقِيقَةٌ وَمَجَازٌ وَتَصْوِيرٌ وَرَمَزٌ. وَكَانَ هَذَا الْكَلَامُ كَلَامًا أَدْبِيًّا يُرَاعِي مَبْدَأَ الْجَمَالِ فِي السَّرْدِ، لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَلَا يَبْتَغِي عَنْهُ بَدِيلًا. لَقَدْ سَكَلَتْ الْأَسْطُورَةُ اللُّغَةَ عَلَى هَوَاهَا، فَحَرَمَتْ أَلْفَاظًا وَأَبَاحَتْ أُخْرَى، لِأَنَّ ذِكْرَ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ يُعَادِلُ اسْتِحْضَارَهُ، فَكَيْفَ وَالْمَذْكُورُ كَائِنٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، يَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرِّ. وَحَجَبَتْ أَلْفَاظًا أُخْرَى بِحُجُبٍ كَثِيفَةٍ مِنَ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ، دَرَاءً لِكُلِّ فِتْنَةٍ، وَحِمَايَةً لِلْإِنْسَانِ الدَّاكِرِ. وَاخْتَرَعَتْ أَلْفَاظًا هِيَ أَسْمَاءٌ فِي الْأَذْهَانِ، بِغَيْرِ مُسَمِّيَاتٍ فِي الْوَاقِعِ، أَوْ قُلْ هِيَ أَسْمَاءٌ لَا مُسَمِّيَاتٍ لَهَا إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ. وَمَا أَكْثَرَ مَا فِي اللُّغَةِ مِنْ هَازِهِ الْأَلْفَاظِ. "إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ." (قُرْءَانُ كَرِيمٍ) وَكَانَتْ هَازِهِ الْأَسْمَاءُ الْأَسْطُورِيَّةُ أَصْلًا اسْتَقَلَّتْ مِنْهُ أَفْعَالٌ أُسْطُورِيَّةٌ. فَقَامَتْ اللُّغَةُ فَشَكَلَتْ الْأَدَبَ الْأَسْطُورِيَّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيَالٍ وَمَجَازٍ وَرُمُوزٍ وَشَخْصِيَّاتٍ أُسْطُورِيَّةٍ، وَفَضَائِلٍ مُتَخَيَّلَةٍ. ثُمَّ كَانَتْ أُسْطُورِيَّةُ اللُّغَةِ الْوَجْهَ الَّذِي لَا نَعْبَأُ بِهِ كَثِيرًا لِأَسْطُورِيَّةِ الْأَدَبِ، فَلَوْلَا أُسْطُورِيَّةُ اللُّغَةِ، مَا كَانَتْ أُسْطُورِيَّةُ الْأَدَبِ.

تَنَوَّعَتْ الْأَسْطُورِيَّةُ إِلَى أَنْوَاعٍ ذَوَاتِ شَأْنٍ، وَتَنَوَّعَتْ الْأَنْوَاعُ إِلَى أَصْنَافٍ أَقَلِّ شَأْنًا. وَكَثِيرَةٌ هِيَ أَنْوَاعُ الْأَسْطُورِيَّةِ فِي الْعَالَمِ، إِذْ لِكُلِّ شَعْبٍ أُسْطُورِيَّةٌ، ضَاعَ لَهُ مِنْهَا مَا ضَاعَ، وَبَقِيَ لَهُ مِنْهَا مَا بَقِيَ، وَلِكُلِّ شَعْبٍ طَرِيقَتُهُ فِي تَشْكِيلِ الْأَسْطُورِيَّةِ.

أَمَّا الْعَرَبُ، فَقَدْ عَرَفُوا وَيَعْرِفُونَ مِنْهَا أَنْوَاعًا. فَعِنْدَكَ الْأَسْطُورِيَّةُ التَّكْوِينِيَّةُ، وَهِيَ أُسْطُورِيَّةٌ شَغَلَهَا الشَّاعِلُ الْحَدِيثُ عَنِ نَشْأَةِ الْعَالَمِ، بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ، وَهِيَ أُسْطُورِيَّةٌ نَادِرَةٌ، إِذَا قَسَمْتَهَا بِغَيْرِهَا، بَلِ الْأَصْلُ فِيهَا أَنْ تَكُونَ نَادِرَةً.

وَ عِنْدَكَ الْأَسْطُورِيَّةُ الْعَرَابِيَّةُ الْعَرَابِيَّةُ، وَقَدْ كَانَ لِلْقُرُونِيَّةِ اعْتِنَاءٌ بِمَفْهُومِ الْعَجَبِ وَالْعَرَابِيَّةِ، فَفَتَحَ بِهِ الْبَابَ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ مِنْ هَذَا الْبَابِ بَعْدَهُ أَوْ لَمْ يَكِدْ إِلَّا قَلِيلًا، وَفِيهَا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي السَّحَرَةِ وَالْأَمْكِنَةِ وَالْأَشْيَاءِ مَا فِيهَا، وَقَدَاسَتُهَا تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْقَدَاسَةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْقَدَاسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

وَ عِنْدَكَ الْأَسْطُورِيَّةُ الْكِرَامِيَّةُ، وَهِيَ بَحْرٌ لَجِيٌّ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَقَامُوسٌ لَا قَامُوسَ لَهُ، وَفِيهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَمَنَاقِبِهِمْ مَا لَا يَحْصِرُهُ حَاصِرٌ، وَلَا يَعْذُهُ عَادٌ، وَلَا يُفْنِيهِ الْمُحِيطُ مِنْ كَثْرَتِهِ، وَفِيهَا مِنَ الْقَدَاسَةِ وَالْتَعَجِيبِ مَا يَأْخُذُ بِالْأَلْبَابِ، وَتَحَارُ فِيهِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ بِهِ. وَقَدْ كَتَبْنَا فِي كُلِّ هَازِهِ الْأَنْوَاعِ مَا كُتِبَ لَنَا أَنْ نَكْتُبَ.

وَ عِنْدَكَ الْأَسَاطِيرُ الْأُخْرَوِيَّةُ، وَ هِيَ أَسَاطِيرُ تُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا سَوْفَ يَفْعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنَ الْأَهْوَالِ، بَلْ بِمَا سَوْفَ يَفْعُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَذَلِكَ مِنْهَا، وَ تُحَدِّثُهُمْ بِمَا سَوْفَ يَكُونُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ لِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ وَ إِنْ كَانَتْ تُغَلِّبُ التَّرْهيبَ عَلَى التَّرْغِيبِ. قَدْ طَرَزَهَا الطَّارِزُونَ فِي دَارِ طِرَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ، فَجَاءُوا بِهَا كَأَنَّهَا هِيَ، لِإِقْنَاعِ الْوَاقِفِ الْمُؤْمِنِ بِتَدْعِيمِ إِيْمَانِهِ، أَوْ التَّلْبِيسِ عَلَيْهِ فِي إِيْمَانِهِ، عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ، أَوْ عَنْ تَدْبِيرٍ مُحْكَمٍ. وَ لَيْسَتْ إِيَّاهَا فِي قَبِيلِ وَلَا دَبِيرٍ. "إِنَّمَا هُوَ قَوْلُ بَشَرٍ". وَ مِنْ هَذَا النُّوعِ أَسَاطِيرُ الْجُفُورِ. وَ قَدْ كَانَ لَنَا مَعَهَا وَقْفَةٌ أَوْ وَقَفَاتٍ، دِرَاسَةٌ وَ تَرْجَمَةٌ.

وَ عِنْدَكَ أَنْوَاعٌ أُخْرَى مِنَ الْأَسَاطِيرِ لَمَّا نَفَرَ غٍ لِتَحْقِيقِ أَمْرِهَا، وَ بَيَانِهِ لِلنَّاسِ، فَعَسَى أَنْ تَرْتَفِعَ الْمَوَانِعُ، وَ تَنْتَهِيَّ الْأَسْبَابُ فَنَفَرَ غٍ لَهَا، بِحَوْلِ اللَّهِ وَ قُوَّتِهِ. "وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ".
أَمَّا غَيْرُنَا مِنَ الْأُمَّمِ، فَلَهُمْ أَنْوَاعٌ يُطَابِقُ بَعْضُهَا مَا عِنْدَنَا، وَأَنْوَاعٌ أُخْرَى لَا تُطَابِقُ بِالضَّرُورَةِ مَا عِنْدَنَا.

لَقَدْ عَاشَتْ الْبَشَرِيَّةُ مُنْذُ كَانَتْ وَ مَا زَالَتْ تَعِيشُ بِالْأَسْطُورَةِ، إِذْ لَيْسَ لَهَا مِنْهَا مَنَاصُ، وَ كَانَتْ هَازِهِ الْأَسْطُورَةُ أَصْلًا لِمَا دَوَّنَهُ الْإِنْسَانُ قَدِيمًا وَ سَمَّاهُ "التَّارِيخُ"، وَ إِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ لَا تَارِيخُ، وَ أَصْلًا لِمَا دَوَّنَهُ الْإِنْسَانُ قَدِيمًا وَ سَمَّاهُ "جَغْرَافِيَّةً"، وَ إِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ لَا جَغْرَافِيَّةً، وَ لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، إِنْ فَتَشْتَهَا تَفْتِيشًا، وَ جَدَّتْهَا أَدَبًا مِنَ الْأَدَابِ.

وَ قَدْ تَرَامَتْ الْعُلُومُ الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَى مِيدَانِ الْأَسْطُورَةِ، غَيْرَ هَيَابَةٍ وَلَا وَجَلَةٍ، فَاقْتَحَمَتْهُ اقْتِحَامًا فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي. وَ قَدْ أَنْ الْأَوَانُ الْآنَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، أَنْ نُفَكِّرَ فِي الْأَسْطُورَةِ، مِنْ حَيْثُ هِيَ ظَاهِرَةٌ إِنْسَانِيَّةً، وَ مِنْ حَيْثُ هِيَ ظَاهِرَةٌ أَدَبِيَّةً، تَفْكِيرًا عِلْمِيًّا لَا يُقَدِّسُهَا وَلَا يَلْعَنُهَا، بَعْدَمَا قَضَيْنَا قُرُونًا وَ نَحْنُ نُفَكِّرُ بِالْأَسْطُورَةِ فِي الْعِلْمِ، وَ نَحْنُ نَحْسِبُ أَنَّنا نُفَكِّرُ فِي الْعِلْمِ بِالْعِلْمِ.

أ. د. جعفر ابن الحاج السُّلْمِيّ



- أستاذ كرسيّ الدراسات المغربية الأندلسية بكلية الآداب بتطوان، جامعة عبد المالك السعديّ.

- باحث في الأدب والتاريخ وتاريخ الفكر ونظرية العلم.

- مؤلف، محقق، مترجم، شاعر.

- نشر عشرات الأبحاث والكتب، وشارك في ندوات دولية ووطنية ومحلية كثيرة.

- أستاذ زائر في جامعات إسبانية وأمريكية، وأستاذ دوليّ، وخبير دولي في تقييم الأبحاث والجوائز.